الحياة الاجتماعية في المدينة المنورة في العصر المملوكي

(٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م)

الحياة الاجتماعية في المدينة المنورة في العصر المملوكي

(٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م)

سارة بنت أحمد الزهراني

مركز بحوث و دراسات المدينة المنورة
Al-Madinah Al-Munawwarah Research & Studies Center

دارة الملك عبدالعزيز

ⓒ مركز بحوث ودراسات المدينة المنوَّرة، ١٤٣٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الزهراني، سارة بنت احمد

الحياة الاجتماعية في المدينة المنورة في العصر المملوكي/

المدينة المنورة، ١٤٣٦هـ

٤٣٠ ص؛ ١٧ × ٢٤سم

ردمك: ٠ - ٥ - ٩٠٥٣٧ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١- المدينة المنورة - الأحوال الاجتماعية ٢- العصر المملوكي

أ. العنوان

ديوي: ٣٠٩.١٥٣١٢٢ ١٤٣٦/٨٨٢٦

رقم الإيداع: ٣٠٩.١٥٣١٢٢

ردمك: ٠ - ٥ - ٩٠٥٣٧ - ٦٠٣ - ٩٧٨

حقوق الطبع والنشر محفوظة لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة، ولا يجوز طبع أي جزء من الكتاب أو نقله على أية هيئة دون موافقة كتابية من الناشر إلا في حالات الاقتباس المحدودة بغرض الدراسة مع وجوب ذكر المصدر.

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

ارتبط تاريخ المدينة المنورة بالرسول ﷺ، فلا يمر ذكر للنبي المصطفى ﷺ إلا وتشتاق النفوس إلى المدينة المنورة والعيش فيها.

وظلت المدينة المنورة – على الرغم من قلة الموارد وانعدام الأمن في بعض فترات التاريخ – تُقصد للسكنى والإقامة، أو المجاورة فيها.

كان لضعف الدولة العباسية في القرن الثالث الهجري، وقيام امارات محلية في الحجاز، ثم سيطرة الدولة العبيدية (الشيعية) في مصر ومدّ نفوذها للحرمين الشريفين، وانتشار الحركات الباطنية أثره المخيف على الحجاز، فارتحل كثير من السكان بسبب الفقر وانعدام الأمن.

وبعد أن عز الله أمة الإسلام – في ذلك الحين – بصلاح الدين الأيوبي واسترجع بيت المقدس من الصليبيين، بعدما أسس دولته في بلاد الشام، ومصر بدأ في إصلاح أوضاع مكة والمدينة، فأخذ الناس والمجاورون يتوافدون على الحرمين الشريفين.

وحينما تولى المماليك السلطة في مصر وبلاد الشام اهتموا بالحرمين، وخصوصاً المدينة المنورة، فقاموا بدعم المجاورين للعيش في المدينة، وعززوا من سلطتهم في مواجهة ما يلاقونه من عداء وعنت، ورتّبوا وظائف المسجد النبوي، وتدخلوا في تعيين الأمير الحسيني،

وأصبحت الإمامة والخطابة تسند للعلماء بقرار مكتوب من السلطان المملوكي.

فاستقرت أسر علمية عديدة في المدينة النبوية، مثل: أسرة ابن فرحون، وأسرة الخجندي، وأسرة الكازروني، وأسرة الزرندي، وأسرة السمهودي وغيرهم كثير من الأسر العلمية، والتجارية، والحرفية التي استوطنت في طيبة الطيبة.

ونظراً لاستتباب الأمن ، ووفرة المال أضحت المدينة المنورة في العهد المملوكي مكاناً للجذب، فتضاعف عدد السكان من أنحاء العالم الإسلامي، وامتزجت عادات الشعوب المختلفة مع بعضها البعض، وتسابق الواقفون وميسوروا الحال في إنشاء الأربطة، والمدارس، والتكايا، والزوايا، والأسبلة وغيرها من أنواع الأنشطة الخدمية لسكان المدينة المنورة.

إن هذا الكتاب: «الحياة الاجتماعية في المدينة المنورة في العصر المملوكي (٦٤٨ - ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠ - ١٥١٧م) للأستاذة: سارة بنت أحمد الزهراني يلقي الضوء على عناصر المجتمع المدني ونشاطاته المتعددة وفق ما توفّر للباحثة من مصادر ودراسات عن العصر المملوكي.

أسأل الله أن ينفع بهذا الكتاب، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

المحتويات

١٣	**المقدمة**
٣١	**التمهيد**
٣٣	أ- جغرافية المدينة المنورة وخططها في العصر المملوكي
٥٣	ب- الأوضاع السياسية في المدينة المنورة في العصر المملوكي
٦٩	**الفصل الأول** **المؤثرات العامة في الحياة الاجتماعية بالمدينة المنورة**
٧١	**المبحث الأول**: المسجد النبوي والمكانة الدينية للمدينة المنورة
١٠٥	**المبحث الثاني**: الارتباط السياسي والإداري للمدينة المنورة مع الدولة المملوكية
١١٣	**المبحث الثالث**: الأوضاع الاقتصادية
١٣٩	**المبحث الرابع**: الحالة الأمنية
١٤٧	**الفصل الثاني** **سكان المدينة المنورة والعلاقات الاجتماعية بينهم**
١٥١	**المبحث الأول**: عناصر السكان
١٥١	سكان المدينة الأصليون
١٥٦	الأشراف
١٦٤	المجاورون

١٨٢ | خدام (أغاوات) الحرم النبوي
١٩٢ | الموالي
١٩٧ | المبحث الثاني: العلاقات الاجتماعية بين العناصر السكانية
١٩٧ | التواصل الاجتماعي
٢٠٤ | المصاهرات بين الأسر
٢١٠ | الاندماج الاجتماعي
٢١٥ | **الفصل الثالث**
النشاط السكاني في المجتمع المدني
٢١٧ | **المبحث الأول**: الوظائف والمهن في المجتمع المدني
٢١٧ | الوظائف الدينية والإدارية
٢٣٦ | المهن الخدمية في المجتمع
٢٤١ | مجالات عمل المرأة في المجتمع المدني
٢٤٩ | **المبحث الثاني**: الأنشطة الاقتصادية
٢٤٩ | الزراعة
٢٦٧ | الصناعة والحرف
٢٧٣ | التجارة
٢٧٧ | **الفصل الرابع**
الحياة العامة والمؤسسات الاجتماعية في المدينة المنورة
٢٧٩ | **المبحث الأول**: الحياة العامة

٢٧٩	السكن وأنواع اللباس والطعام والشراب
٢٩٩	العادات والتقاليد الاجتماعية
٣١٠	الأعياد والاحتفالات
٣١٧	**المبحث الثاني**: المؤسسات الاجتماعية
٣١٧	المساجد
٣٢٣	المدارس
٣٣٤	الأربطة
٣٣٩	البيمارستانات
٣٤٢	الأسبلة والبرك
٣٤٤	السجون
٣٤٩	**الخاتمة**
٣٥٣	**الفهارس**
٣٥٥	الآيات القرآنية
٣٥٧	فهرس الأحاديث والآثار
٣٥٩	فهرس الأعلام، والقبائل، والجماعات، والطوائف
٣٧١	فهرس الأماكن
٣٧٩	فهرس الشعر
٣٨١	فهرس المصادر والمراجع

المقدمة(*)

الحمدُ لله الذي أشـرَقَتْ بنور وجهه السَّـمَوَاتُ والأَرض، الحمدُ لله الـذي أَنزَلَ القُرآنَ عَلَى عَبـدِه لِيَكُونَ لِلعَالَمِينَ نَذِيرًا، وَأُصَلِّي وَأُسَـلِّم عَلَى الرَّحْمَةِ المُهْدَاةِ إِلَى العَالَمِين، نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ أَمَّا بَعد:

فَقَد شَـهِدَ العَالَمُ الإِسـلاميُّ في مُنتصَف القَرن السَّابع الهجريِّ، الثالث عشـر الميـلادي ظهورَ قُـوَّةٍ جَديدةٍ حَلت مَـكَان الدولَـةَ الأيوبية في مِصر والشام؛ تلك القوَّة هي: دولة المماليك (٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م).

وَليسَ هَـذا مَجـال الحديث عن المماليـك وإنجازاتهـم، والظروف والمتغيـرات التي جعلت منهم أكبرَ قوَّةٍ في العالم الإسـلاميِّ آنذاك، وإنَّما يكفِي أنْ نشـيرَ إلى أنَّ عَصرَهُم كَانَ زَاخراً بالانتصَارات في مسـيرة الجهَاد الإسلامِي، ضدَّ المغُول والصليبيين، وَصورةً مُشرِّفةً للحضارة الإسلامية، وَأصبحَ عَصرُهُم أَحدَ العُصُور المعتَمَدة في الدِّراسَات التاريخية.

وَقَـد حَرَصَ المَماليـك منذُ قِيام دَولتِهم عَلَى مَـدِّ نُفُوذِهم عَلَى بِلاد الحَرمِين الشـريفين (الحِجَاز)[1]؛ لاكتسـاب الصفة الشرعية لحُكمهِم،

(*) أصل هذا الكتاب رسـالة علمية قدمت لنيل درجة (الماجسـتير) في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسـلامية،كلية العلوم الاجتماعية، قسم التاريخ، سـنة ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م، بإشراف الدكتور محمد بن علي عسيري.

(١) الحجاز أحد أقسـام الجزيرة العربية الإدارية، ولكن حـدوده غير معروفة منذ القدم بصورة =

والرَّفـع من مكانتهم عندَ المسـلمين، وبصفتِهم رُعاةَ الخِلافةِ العباسـيةِ، التـي أَحيَوها فـي القَاهِرة بعد سُـقُوطها فـي بغداد، نَجـح المماليكُ في الانفـرادِ في بـلادِ الحجازِ دونَ مُنـازِع[١]، وَتَدرَّج هذا النفـوذُ إلى درجةِ الارتبـاطِ الرسـميِّ المباشِـر بالدولـةِ المملوكيـة، فـي عَصرهـا الثاني (٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م-٩٢٣هـ/ ١٥١٧م)، وأصبـحَ أميرُ مكةَ فيما بعد نائبَ السلطةِ المملوكيةِ، في الدِّيارِ الحِجَازية[٢].

وقـد ترتَّب عَلَـى هَذا الارتباطِ نتائجُ مهمَّة بالنسـبةِ لبـلادِ الحجازِ في جميعِ النواحي السياسـيةِ والاقتصاديةِ والاجتماعية، والذي يُهمُّنا من ذلك

= واضحةٍ ومحددةٍ ولربما يرجع السـبب إلى أن بعض سكانه من البدو الرحل،كذلك وجود المـدن المقدسـة مكة المكرمـة والمدينة المنـورة والتي تضم لنفسـها أقاليـم أخرى، وهذه التقسيمات غير ثابتة ولا متطابقة مع الأقسام الجغرافية. ويصف الحَمَوِيّ الحجاز بقوله: «جبل ممتّـد حال بين الغَوْر غَوْر تهامة ونجد، فكأنه منع كلّ واحد فيها أن يختلط بالآخر فهو حاجز بينهما». لتفصيل أكثر انظر: الحَمَوِيّ، ياقوت بن عبدالله الرومي(ت٦٢٢هـ)، معجم البلدان، (د.ط.)، بيـروت، دار صـادر، ١٣٩٧هـ/ ١٩٩٣م، ٢/ ص٢١٨-٢٢٠. ويذكر مؤرخ الفترة المملوكية السمهودي بأن الحجاز هو: «مكة والمدينة واليمامة ومخاليفها». السمهودي، نور الديـن علي بن أحمد (ت٩١١هـ)، خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفـى، تحقيق: علي عمر، ط١، بـور سـعيد، مكتبة الثقافة الدينيـة، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ج٢، ص٢٢٦. العلي، صالح، تحديد الحجاز عند المتقدمين، مجلة العرب،ع١، السنة الثالثة، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م، ص٢٨.

(١) المقريـزي، تقـي الديـن أحمد بن علـي (ت ٨٤٥هـ)، السـلوك لمعرفـة دول الملوك، تحقيـق: محمد عبد القادر عطا،ط١، بيروت، دار الكتـب العلمية،١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ج١، ص ٥٠٤-٥٠٥.

(٢) ابـن فهـد، عز الدين عبـد العزيز بـن عمر (ت ٩٢٢هـ)، غاية المـرام بأخبار البلـد الحرام، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، مكة المكرمة، مركز إحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ج٢، ص٢٧٩.

دراسةُ الحياةِ الاجتماعيةِ في المدينةِ المنورة، من جميع جوانبها، بما فيها عناصر السكان، أو فئاتهم، والبعضُ يُسمِّيها: التركيبة السكَّانية، والوظائف: التي يعملونَ بها، ومَجالات أنشطتهم، والعلاقات بينهم، من حيث المصاهرةُ والاندماجِ، ومنها الحياةُ العامَّةُ في المجتمع المَدنِي، مثل السَّكَن، والطَّعَام، واللِّبَاس، وَأَدَوَات الزينة، والعادات، وَالتقَاليد، والاحتفالاتِ في المناسباتِ الدينيةِ والاجتماعية، ثُمَّ المؤسسات الاجتماعية وأثرها في المجتمع، وجَميع العَنَاصِر السَّابقة، وهي عناصرُ ثابتةٌ في جَميع العُصُور، ولكن تَفصِيلاتِها تتغيَّر بِحسب المؤثِّراتِ في العَصر الذي تكوَن فيه الدراسة.

ولعلَّ مِن أَبرز المؤثِّرات في الحَيَاةِ الاجتماعيةِ في المدينةِ في العَصرِ المملوكيِّ الارتباطَ السياسِيَّ والإدَاريَّ للمدينة المنورة، بمصر المملوكيةِ في جَميع جوانب الحياةِ الاجتماعية، وأبرزُها التركيبةُ السكَّانيةُ في المدينةِ المنورةَ؛ فمِن المعرُوفِ أَنَّ العَصرَ المملوكيَّ قَد شَهِدَ قُدومَ جَماعاتٍ مِن مختلف الأمصار الإسلامية عموماً ومن مصر خصوصاً[١]، استقرَّت في المدينةِ المنورة؛ لأنَّ هذه الجَمَاعات كَانت مُختارةً بعنايةٍ من الفِئات المتعلِّمة للنُهوض بالحياةِ العلميةِ في المدينةِ المنورة، ومن الفئاتِ الإداريةِ المدرَّبةِ لشَغلِ الوَظَائفِ القياديةِ في الإمَامَة، والقَضَاء، والخَطَابة، والدَوَاوين، وجَمَاعة من الفنيين المَهَرَة في البِنَاء والصنَاعَة والمهن والحِرَف المختلفة[٢]، ومن هذه الفئات تكوَّنت في المجتمعِ

(١) السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢هـ)، التحفة اللطيفة في أخبار المدينة الشريفة،تحقيق: أسعد طرابيزون، ط١، القاهرة، (د.ن.ت)، ج١، ص١٧٨.

(٢) السخاوي، التحفة اللطيفة، ج٣، ص٣١٢-٣١٧.

المدني ظَاهِرةُ الأُسـر المتخصِّصة في كثيرٍ مـن المجالات، يتوارثُ هذا التخصُّص الخلف عن السلف.

وَكَمَا كَانَ لهـذه الفئات تأثيرٌ واضحٌ في الحياة الاجتماعية في المدينة المنورة في مجال أنشـطة السكَّان والعمل، فإنها أثَّرت في الحياة العامَّة من الطعام واللبـاس والعادات والتقاليد والاحتفالات في المناسـبات الدينية والاجتماعية وغير ذلك[١].

كَمَا بَرَزَ في هذا العصر تأثيرُ المتغير الاقتصاديِّ في الحياة الاجتماعية فـي المدينـة المنـورة، فمنـذُ أواخر القـرن الثامـن الهجريِّ، الرابع عشـر الميـلادي بـدأت مراكزُ التجـارة العالميـة البحرية في التحـوُّل من موانئ اليمـن وميناء عيذاب إلـى موانئ الحجاز جـدة وينبع[٢]، ونتـجَ عن ذلك نشـاطُ الحركة التجارية في بلاد الحجاز، وتَحسُّـن فـي الحالة الاقتصادية للسكَّان، وانعكسَ ذلك على الحياة الاجتماعية؛ وخاصَّةً السكَن، والطَّعَام، واللباس، وأدوات الزينة المختلفة.

وتكتسبُ هذه الدراسـةُ أهميةً كبيرةً من بُعدين؛ هما: البُعد المكاني، والبُعـد الموضوعـي. فمن جهة البُعـد المكاني (الأهميـة المكانية) فلأنَّ الدراسـةَ تتعلَّق ببقعةٍ من أقدس بِقَاع العالم الإسلامي، وهي مدينةُ رسول اللـه ﷺ، ودارُ الهجـرة، وثانـي الحرمين الشـريفين، وعاصمةُ الإسـلام

(١) ابن رشيد، أبو عبد الله محمد بن عمر (ت٧٢١هـ)، ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة، تحقيق: محمد الحبيـب بن الخوجه، ط١، بيروت، دار الغرب الإسـلامي، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ج٥، ص١٦.

(٢) مورتيـل، ريتشـارد، الأحوال السياسـية والاقتصادية بمكة في العصـر المملوكي، الرياض، عمادة شؤون المكتبات بجامعة الملك سعود، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص١٨٠.

الأولى، وبها المسجدُ النبوي، ومثوى المصطفى ﷺ، ولها من المكانةِ الخاصَّةِ في نفسِ كلِّ مسلم مَا يَجعل أنظارَ جميعِ المسلمين تتطلَّع لمعرفةِ شيءٍ من تاريخها عبر العصور، ويزيدُ الأمرَ أهميةً بالنسبةِ لأبناءِ هذا البلد (المملكة العربية السعودية) حيثُ يصبحُ الاهتمامُ بتاريخِ المدينةِ المنورة من صميم واجباتهم، ويدخلُ ضمنَ خدمةِ الحرمين الشريفين، التي شرَّف الله بها أبناء هذا البلد، وهو في الوقتِ نفسِهِ من ضمنِ التاريخِ الوطنيِّ للملكة العربية السعودية.

أما البُعدُ الموضوعي (الأهمية الموضوعية) فلأنَّ موضوعَ هذه الدراسة -الحياةَ الاجتماعية في المدينة المنورة- من الموضوعاتِ الحضاريةِ المهمَّة، وركيزةٍ أساسية من ركائز الحضارة في هذا البلد؛ لأنها تتعلَّق بدراسةِ حياةِ الإنسان ونشاطه في مُجتمعه، ومن مُجمل نشاطِ الإنسانِ وتفاعله تنتجُ مظاهر الحضارة الأخرى؛ الحياة الاقتصادية، والحياة العلمية، والنواحي العمرانية، وغيرِها من مظاهر الحضارة المادية.

الحدودُ الزمانيةُ والمكانيةُ لهذه الدراسة:

قبلَ البدءِ في ذكرِ الحدودِ الزمانيةِ والمكانيةِ لهذهِ الدراسةِ تَجدرُ الإشارةُ إلى ملاحظةٍ مهمَّةٍ فيما يتعلَّقُ بالتسميةِ التي وردت في صَفحةِ العنوانِ (المدينة المنورة)، فهذهِ التسميةُ لم تكن مشهورة في زمن البحث، فقد اختار المؤرِّخُ السخاوي (ت٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م) الذي يعد أبرز مؤرخي المدينة مسمى (المدينة النبوية) ونجده في كتابه: (التحفة اللطيفة في تاريخ المدينةِ الشريفة)، ومن خلال تراجمه - يذكرُ المدينة مُجرَّدةً دون وصف أو إضافة، وهذا في

أغلبِ التراجم، أما إذا ذكرها موصوفة فإنه يصفُهَا بقوله: المدينة النبويّة، فدلَّ ذلكَ على أنَّ التسمية بالمدينة النبوية كانت سائدة في عصرِ الدراسةِ وهو العصرُ المملوكي، أما تسميةُ المدينةِ المنورةِ المتداولة في العصرِ الحاضرِ فهي تسميةٌ متأخرةٌ عن فترةِ الدراسة، ترجعُ إلى العصرِ العثماني.

إنَّ الحدودَ الزمانيةَ لدراسةِ الحياةِ الاجتماعية، في المدينةِ المنورة، في هذهِ الدراسةِ، مرتبطةٌ بالعصرِ المملوكيِّ، المحدَّد زمنياً بالفترة من: (٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م)، وستلتزم الباحثةُ بذلك، مع ملاحظةِ أنَّ الموضوعاتِ الحضاريةَ ومنها الحياةُ الاجتماعيةُ ليست مثلَ الأحداثِ التاريخية، لها بدايةٌ ونهايةٌ تلتزمُ فيها بتوقيتٍ مُحدَّد قاطع؛ لأنَّ دراسةَ ظاهرةٍ اجتماعيةٍ في عصرٍ مُعيَّن قد تكونُ بدايتُها قبله، ونَهايتُها في العصرِ الذي يليه.

أمَّا الحدودُ المكانيةُ لِهذهِ الدِّراسة، فسَوفَ تتركَّزُ على المدينةِ المنورة بالدرجَةِ الأولى، فهي المدينةُ البارزةُ بعدَ مكة في إقليمِ الحجاز، وليس فيما حَولَها - قريباً منها - مراكزُ حضاريةٌ تشملُها التسميَةُ، كما هو الحالُ الآن في مسمَّى منطقةِ المدينةِ المنورة.

الدراسات السابقة:

كانت قلَّة المادةِ العلميةِ وتشتُّتها في مصادر عديدة سبباً لقلة الدراسات الحضارية، التي تناولت المدينة المنورة، ولم يُفرد هذا الموضوعُ برسالةٍ علميةٍ مُفصَّلةٍ في الكتابةِ التاريخيةِ مُسبقاً، فهو موضوعٌ جديدٌ في الدراساتِ التاريخيةِ عن المدينةِ المنورة؛ يتعلق بدراسةِ الحياةِ الاجتماعية، كأبرزِ

العناصـرِ الحضاريةِ في المدينةِ المنورة، في العصرِ المملوكي، وبِها يُمكنُ قياسُ ما بلغه المجتمع المدني من تقدُّمٍ ورقيٍّ أو العكس.

فمن تلك الدراسـات التي تطرقت إلى الجوانب الحضارية في المدينة خلال العصر المملوكي:

- **(المدينة المنورة في العصر المملوكي)** للدكتور/ عبد الرحمن مديرس المديرس، وهي في الأصلِ رسـالةُ دكتوراه، من جامعةِ الملك سـعود، ومنشـورةٌ في كتابٍ عن طريق مركز الملك فيصل للبحوثِ والدراساتِ الإسـلامية، سـنة: (١٤٢٢هـ)، وتشـمل دراسـتُه الجوانـبَ السياسـيةَ والاقتصاديةَ والاجتماعيةَ والدينيةَ، وفيما يختصُّ بالجوانبِ الاجتماعية؛ فإنه أوجزَ فيها، واقتصرَ على حدودِ ما سَـمحت به دراسـته الشـاملة عن المدينةِ المنـورة، حيث خصَّ الحياةَ الاجتماعيةَ؛ بفصلٍ بلغت صفحاتُهُ إحدى وخمسـين صفحة، ومن ذلك يتبيَّنُ: أنَّ الحياةَ الاجتماعيةَ تَحتاجُ لبحثٍ أوفى من تلك الدراسةِ على الرغمِ من أهميتها.
- **(الرعايةُ الاجتماعيةُ وأثرُها على الحياةِ العامَّةِ في المدينةِ، خلال العصر المملوكـي)** للدكتـور/ عبد العزيز بن راشـد السـنيدي، وهو بحثٌ مُقدَّمٌ إلى اللقاء العاشـر، للجمعيةِ التاريخيةِ بالمدينةِ المنورةِ، سـنة: (١٤٢٨هـ)، ويركِّز على الرعايةِ الاجتماعيـةِ وميادنيها، ومظاهرها، وأسبابِ تطوُّرها، وتناولَ أيضاً المرافق الخدمية، والعنايةَ بها بإيجاز، كذلـكَ تحدَّث عن دعمِها للحركةِ العلمية، وفي آخر البحثِ ذكرَ أثرَ الرعايـةِ الاجتماعيةِ فـي الحياةِ العامـة، وكانت معلوماتُ الدراسـة موجِّهةً جانباً صغيراً من الحياةِ الاجتماعية، إلى المدينةِ المنورة، ولم

تتجاوز صفحاتُ البحثِ بكامله ثماني وخمسين صفحة، وهو بذلك يتوافقُ مع موضوعِ هذه الرسالةِ في جزءٍ صغيرٍ منها، وهو المبحثُ الثاني من الفصلِ الثالث، وعنوانه: المؤسَّسات الاجتماعية، كما هو مُوضَّحٌ في مُخطَّطِ الرسالة، أما باقي موضوعاتِ الحياةِ الاجتماعيةِ في الرسالة فهي أعمُّ وأشملُ من هذا البحث، وجَميع موضوعاتها مَجالٌ لإضافاتٍ جديدةٍ لَم يَسبق دراستُها.

التعريف بأهم المصادر:

لاشكَّ أنَّ لكلِّ عملٍ علميٍّ طبيعته، التي تفرضُها وجهتُه الدراسيةُ، وميدانُ العمل، وبالتالي فإنَّ لكلِّ موضوعٍ مصادرُ، ومنابعُ مُعيَّنة ومُحدَّدة تُمليها طبيعةُ ذلك الموضوع، وموضوعُ دراسةِ الحياةِ الاجتماعيةِ يفرضُ على الباحثِ أن يلتقي العديدَ من المصادرِ المتخصصةِ في التاريخِ والسياسةِ والاقتصادِ والاجتماعِ، وجميعِ العلومِ المختلفة.

والكتابةُ عن الحياةِ الاجتماعيةِ، في المدينةِ المنورة، في العصرِ المملوكيِّ، كانت تتطلَّبُ جهداً كبيراً، إذ لا بُدَّ من الرجوعِ إلى عددٍ كبيرٍ من المصادرِ الأصلية لفترةِ البحث، إضافةً إلى ذلك فإنها مُحدَّدةٌ ببقعةٍ جغرافيةٍ معينة، وهي المدينةُ المنورة، وبالإجمال فإنَّ المصادرَ التي تتحدَّثُ عن المدينةِ المنورة، في تلك الفترةِ لم يكن تركيزُها على شيءٍ يخصُّ موضوعي هذا: (الحياة الاجتماعية)، وإنما كان مُجملُ الحديث عن العلماءِ ومؤلفاتهم، ولم يكن الجانبُ الاجتماعيُّ قد خاضه أحدُ مؤرِّخي تلك الفترة، وخصَّص له مؤلفٌ على حدةٍ.

ومـن أبـرز المصادر المخطوطـة والمطبوعة التي اعتمـدتُ عليها في بحثي هي:

- **المخطوطات:**

لـم أضمِّن بحثي العديد من المخطوطات؛ لأنني وجدتُ في المصادرِ المطبوعةِ حاجتي فيما يخصُّ الموضوع، ولكنني أحلتُ القارئَ في رسالتي إلى مخطوطةٍ أحسبها بِكراً في الاستفادةِ منها للباحثينَ والباحثات فيما يخصُّ الجوانب الحضارية، وهي للإمام جلال الدين السـيوطي (٨٤٩-٩١١هـ)، بعنوان: (**بدائع أهل الشرف في آدَاب أهل الصنائع والحِرَف**) وتتحدَّث «عن بدائعَ لطيفةٍ وأخبار ظريفةٍ، تشتملُ على أحوالِ أرباب الصناعات والحِرف، وعن لسانِ أحوالهم، ولغاتهم، والمقاصدِ التي يقصدونها من فهمِ العبارات والإشارات»[(١)].

- **المصادر المطبوعة:**

أبـرز المصادرِ التي أثـرت فصولَ بحثي؛ لاشـتماله على معلومـاتٍ متنوعة فيما يخصُّ الجوانبَ الاجتماعية، التي أرى ندرتها فيما سـواه من مصادرٍ؛ والذي ضمَّنتـه مجملَ مباحثي في فصولِ البحث، وقلَّ أن يخلوَ مبحثٌ فيه دون أن يكون من ضمن مصادر المعلومات بها، هو كتاب: **نصيحة المشـاور وتسـلية المجاور**، للمؤرخ ابن فرحون (ت ٧٦٩هـ)، فهو من أعطاني صورةً واضحةً لبعض التراجم، التي ضمَّنها شيئاً من الحياةِ الاجتماعية، في عصره، في المدينةِ المنورة، والتي من خلالها سُقتُ مُجملَ الحياةِ الاجتماعيةِ، في المدينةِ المنورة في العصرِ المملوكي،

(١) السـيوطي، جلال الدين (ت ٩١١هـ)، بدائع أهل الشـرف في آداب أهل الصنائع والحِرَف، مخطوط، الرياض، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرقم: (٢/ ٩٢٣).

وهذا لا يعني عدم استفادتي من المصادر الأخرى المعاصرة لفترة البحث، ولكنني أعْزُو مُجملها إلى هذا المصدر الذي ألقَى الضوءَ على الحياة الاجتماعية في تلك الفترة، في إشاراتٍ مقتضبةٍ ويسيرةٍ، ضمَّنها بعضاً من تراجمه.

ومن المصادر التي تلي المصدرَ السابق في الأهمية، كتابُ: **التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة** للمؤرِّخ مُحمَّد بن عبد الرحمن السخاوي (ت ٩٠٢هـ) الذي اعتمدتُ على طبعتين مُخلفتين منه، الطبعةُ الأولى التي حُقِّقت من قِبَل أسعد طرابزوني، والأخرى وهي حديثةُ التحقيق، وطُبعت محققةً من قبل مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة، وقد جَرت الإفادة منه بصورةٍ واضحةٍ في جميع فصول البحث الرئيسة. ويُعدُّ كتابه الآخر: **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع** من المصادر المهمَّة التي أفادت البحث، فقد أرَّخ فيها للعلماء والأمراء وقضاة المدينة المنورة.

ومن المصادر المهمَّة لتاريخ المدينة المنورة كتابُ السمهودي (ت٩١١هـ): **وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى**، فقد كانَ السمهودي شاهدَ عيانٍ على الأحداث التي مرَّت بالمدينة المنورة، في العصر المملوكي، وقد توفَّرت فيه معلوماتٌ قيمةٌ، استفدتُ منها في إعطائي صورةً مبسطةً عن خطط المدينة في المدينة المنورة في تلك الفترة، كما استفدتُ منه فيما يتعلَّق بالحرم النبوي وإصلاحاته في هذا العصر، بالإضافة إلى معلوماتٍ أخرى أسهمت في إثراء بحثي عن تلك الفترة.

ويأتي كتابُ بُرهان الدين ابن فرحون، (ت ٧٩٩هـ) صاحب: «**تبصرة الحكام والديباج المذهب**»، **دُرَّة الغوَّاص في محاضرة الخَوَاصّ**، من المصادر التي استفاد منها البحثُ، فيما يخصُّ بعضَ مباحث الحياة

الاجتماعيةِ في تلك الفترة، كون صاحب الكتاب قد أَلَّف كتابه، وتتلمذَ في المدينةِ في تلك الفترة.

كما اعتمدَ البحثُ على مصدرٍ يعدُّ من أهمِّ مصادرِ العصرِ المملوكي، وهـو كتابُ: **السـلوك لمعرفـة دولِ الملـوك للمقريـزي** (ت٨٤٥هـ)، فقد استفاد منه البحثُ في كثيرٍ من الأحداثِ في النواحي السياسيةِ والحضارية.

ومن المصادرِ المهمَّة كتابُ، ابن شـدقم (ت ١٠٣٣هـ): **زهرة المقول في نسـب ثاني فرعي الرسـول**، فقد اسـتفدتُ منه في إضافةِ معلوماتٍ عن الحياةِ الاجتماعيةِ فـي المدينةِ المنورة، وإن كان المصدرُ متأخراً قليلاً عن فترةِ البحث، إلاَّ أنني وجدتُ فيه إشـاراتٍ مهمةً عن الحياةِ الاجتماعيةِ في المدينة، ومن المعلوم أنَّ الحياةَ الاجتماعيةَ لا تتغير تغيراً كبيراً في سنواتٍ قليلة، وإنما – غالباً – تكونُ ثابتةً في عصورٍ طويلةٍ من الزمن.

ويأتـي كتاب الفيروز آبـادي (ت ٨١٧هـ): **المغانـم المطابة في معالم طابة**، من المصادر المهمَّة في العصرِ المملوكي، التي استفاد منها البحث.

وهناكَ العديـدُ من المصادرِ (كتب التاريـخ والمعاجم) الأخرى التي ضمَّنتها البحث، ولكنني اكتفيتُ بذكر نماذجَ لأبرزِها للإيجاز.

أما بالنسـبة لكتب الرحلات فمن أبرزها في تلك الفترة كتاب: **رحلة ابن بطوطة** الذي يُنسـب لمؤلفه ابن بطوطـة (ت ٧٧٩هـ)، وله قيمةٌ كبيرةٌ فـي إعطاءِ صورةٍ واضحـةٍ عن مجملِ الحيـاةِ الاجتماعية، فـي المدينةِ، المنورة، في تلك الفترة، وقد أسـهم في إبرازِ أحـوالِ المدينةِ المنورة في العصرِ المملوكي.

ومن كتبِ الرحلات كذلك التي أسـهمت في البحثِ: **تاج المفرق في تحلية علماء المشرق**، لصاحبه البلوي (ت ٧٦٥هـ).

ويأتـي ابنُ جبير (ت ٦١٤هـ) في كتابـه: (**رحلة ابن جبير**)، وإن كانت مجملُ أحداثِهِ عن العصرِ الأيوبي إلا أنني اسـتفدتُ منه في بعضِ النواحي الحضاريةِ والاجتماعيةِ في المدينةِ المنورة، في العصرِ المملوكي.

وكان كتـابُ: **رحلةِ القلصادي**، للرحالة القلصادي، (ت ٨٩١ هـ)، من الكتب التي أثرت بعضاً من مباحث الرسالة.

وكذلـك تضمَّـن البحثُ بعضاً مـن المصادرِ الجغرافيـة كان منه: ابن حوقل (ت ٣٦٧هـ)، في كتابه: صورة الأرض. وكتاب الشـريف الإدريسي (ت ٥٥٦هـ): **نزهة المشتاق في اختراق الأفاق**، وعلى الرَّغم من أنَّ الكتابَ كانَ جغرافيَّ المصنَّف إلا أنه تضمَّن بعضاً من الإشـاراتِ الاجتماعيةِ التي أثرت البحث.

وقـد عرَّفني على العديدِ مـن المواضع الجغرافيـةِ المهمَّةِ في المدينةِ المنورة: كتابُ الحربي (ت ٢٨٥هـ)، **المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيـرة**، وكان مثريـاً للبحثِ فيما يخصُّ المواضـعَ الجغرافيةَ في المدينةِ المنورة.

ومن أبرز المؤلفات الجغرافيةِ التي أسـهمت بمعلوماتها في الرسـالةِ كتاب: **معجم البلدان**، لياقوت الحموي (ت ٦٥٦هـ).

فصول البحث:

وقد سرتُ في هذا البَحْث وفْق خُطّة اقتضتها طبيعة الدّراسة، فَجاءَت مُقسَّـمةً إلى أربعة فصول مسـبوقة بتمهيد؛ فأمّا التّمْهيدُ فكان أشْـبَهَ بالعَتَبَة التي سَأَلجُ منها إلى فَضَاءات البَحْث، وكان الحديثُ فيه عن:

أوّلهـا/ جُغْرَافيّـة المدينَة المنـورة وخططها، في العَصْـر المَمْلُوكيّ، وفيهَـا حَاولْتُ إعْطَاء نُبْـذة جُغْرافيَّة عن المدينَة المنـورة، وعَرَضْتُ لمْحةً مُوجَزةً لخُطَطِها في ذلك العَصْر.

ثانيها/ الأحوال السّياسِّـيةُ فـي المدينَة المنورة فـي العَصْر المَمْلُوكيّ، وفـي هَذا المبْحث سـلَّطتُ الضّـوء على الجَانب السّياسِّـي، الذي شَـهدتْه المدينَـة المنورة فَـي العَصْر المَمْلُوكـيّ، وأبْرَزِ الصِّراعَـات التي حَدَثتْ في تِلْك الفتْرة.

وبعد التّمْهيد شَـرعتُ في فُصُول البحث الأربَعَة، فكان الفَصْل الأوّل خَاصَّـاً بالمؤُثرِّات العامَّة في الحيَاة الاجْتِمَاعيّة بالمدينَة المنورة، واقْتضتْ المنهَجيّة تقْسيمَ هذا الفصْل أربعة مباحثَ، وهي: المسْجدُ النّبويُّ والمكَانةُ الدّينيّـة للمَدينَة المنورة، الارتبَاطُ السّياسـيِّ والإدَاريّ لَلمَدينَة المنورة مع الدّولة المَمْلُوكيّة، الأوْضَاعُ الاقتصَاديّة، ثُمّ الحَالةُ الأمْنيّة.

أمّـا الفصْلُ الثّاني فَقد تَناولتُ فيه سُـكّان المدينَـة المنورة والعلاقَات الاجْتمَاعيّـة بينَهُـم، واقْتضـت الدقَّةُ في هـذا الفَصْل تقْسـيمَهُ إلى مَبحثين اثنين؛ أوّلهما خاصٌّ بعَناصر السّـكان، وقد ضَمّنتُ هذا المبْحَث الحديثَ عن سُـكّان المدينَة الأصليّين، والأشْـرَاف، والمجاوريـن، وكذلك خدام (آغاوات) الحرم النّبويّ، والموَالي.

والمبحث الآخر يَخصُّ الحديثَ عن العلاقَات الاجتْمَاعيّة بين العنَاصر السُكّانية، ويشْمل الحديث عن التّواصُل الاجتماعيّ، والمصَاهراتِ بين الأُسَر، وأيضاً الاندمَاج الاجتماعيّ.

وجَاء الفصْل الثّالثُ خاصَّاً بدِراسَةِ النّشَاط السُكّاني في المجتمع المدني، وقد تَضمّن مبحثين، أوّلهُمَا الوظائفُ والمهَن في المجتَمَع المدَنيّ، ويتركّز الحديثُ فيه عن ثَلاثةِ أُمورٍ هي: الوظَائفُ الدينيّة، تليه الوظائف الإدَاريّة، ثُمّ المهَن الخدَميّة في المجتمَع، وأخيراً مَجَالاتُ عَمَل المرأةِ في المجتمع المدنيّ.

وفي المبْحث الثّاني في هذا الفصْل أَلقيتُ الضّوء على الأنشِطَةِ الاقتصَاديّة، وضَمّنْتُ الحديثَ فيها عن الزّراعّةَ، والصّناعَة والحرف، وختمْتُهَا بالحَديثِ عن التجارة.

أما الفَصْل الرّابعُ فقد كانَ مُختصّاً بدراسَة الحيَاة العامّة، والمؤسّسَات الاجتمَاعيّة، في المدينَة المنورة، وقد اقتضى الفصْل تَقْسيمَهُ إلى مبْحثين،كان المبحثُ الأوّل يَرتكزُ الحديثُ فيه على الحيَاة العامّة، بما تَشتمِلُ عليه من السّكن وأنواع اللّباس والطّعام والشّراب، وكذلك تِبْيانِ العَادات والتّقاليد الاجتمَاعيّة، والإشَارَةِ إلى الأَعْيادِ والاحتفَالات.

أمّا المبْحثُ الأخِيرُ في الفصْل الرّابع؛ فاخْتصّ بالحدِيثِ عن المؤسّسَاتِ الاجتمَاعيّة كالمساجد، والمدارس، والأرْبطة، وكذلك (البيمَارسْتَانَات)، والأسْبلة والبرَك، وخَتمْتُ الحديثَ عن المؤسّسَات الاجتمَاعيّة بَدراسَةٍ عن السُّجُون.

وقد ذَيّلتُ الدّراسة بخاتمةٍ لخَّصْتُ فيها أبْرزَ النّتائج، التي تَوصّلْتُ إليهَا، في سِيَاق الحيَاة الاجتمَاعيّة، في المدينّة المنورة، في العصْر المَمْلوكيّ.

وخُتِم البحْثُ بفهرسٍ للمصَادرِ والمرَاجِع، رُتِّب ترتيباً أبجدياً، وأخيراً بفهرسٍ للمَوضُوعَات.

وكَان مـن أَبْـرز **الصُّعُوبَات** التـي واجَهْتُهَا خلَال هَـذا البحْث، والتي - بحمـد اللـه - لم تَقِـفْ عَائقةً أَمَامَ هـذه الدّراسَـة، نُدْرةُ المصَـادر التي أرَّخَـتْ للحَياة الاجتمَاعية بحـدِّ ذَاتها، وتَبعْثُر المعلومـات المتعلِّقَة بحيَاة النّاس وتقْسِـيمَاتهم ومَظاهر حَياتهم وعلاقَاتهـم وأوْضَاعِهم بين نُصُوص المصَادر؛ وهو ما يتَطلَّبُ بَذْلَ مَجهودٍ كبيرٍ لجمْعِها وصِيَاغتِها.

وقد حَاولْتُ بَذْل قُصَارى جُهدي في استقراءِ وتكوين صُورةٍ اجتمَاعيةٍ قريبة مـن الحياة الاجتمَاعيـة، التي عَايَشـتْهَا المدينةُ المنـورة، في العصْر المملُوكيّ، من خِلال ما تَوفَّر لديَّ من مَادّةٍ علمّية، وأرجو الله أنْ أكونَ قد وُفِّقـتُ في إعطَاءِ صُورةٍ مُثمرةٍ وقَريبةٍ عمَّا كانتْ عليه مدينةُ المصْطَفى ﷺ في تلك الفَتْرة.

وبعـدُ، فلمْ يكُن يتأَتَّى لهـذَا العَمل أنْ يرَى النُّور لـوْلا فَضْل الله ومَنُّه وتَوْفيقـه وعَوْنـه وتأْييده، ثُمّ جُهودُ نَفَـر من الذين أنْفَقُـوا الوَقت والجهْد، والشُّـعور الصّـادق من أَجْلي، وإننـي مَدينةٌ لهم بالشُّـكر والعِرْفَان، وعلى رأس هؤُلاء وَالِدَاي الكَريمَان، اللّذان أشْعَلا رُوحَيهمَا وَقُوداً لهذه الشّمعة، وكُنت أُسَابق الوَقتَ شَوقاً لرؤية فرْحتهما، لنَيْلي هذه الدّرجة العلّمية، التي لطالمـا انتظراها، أكثر من انتظَاري إياها - يقيناً، كما لا أَنسـى تقديمَ جَزيل الشّـكر والعِرفان لعضدي الكبير؛ أخي المهندس: تركـي الزهراني، الذي

شَقَقْتُ عليه، وحمّلتُه بعضاً من أعبائي، فكان نِعْم العضد، ولا أنسى تقديم الشّكر لأخي النّقيب: بدر الزهراني، الذي كان البلْسم لتعَبي ومعاناتي، التي لقيتُها من أجل الانتهاء من هذا البحث، فكان يَرويني من صَبْره وحَنانه زهوراً رأيتها يانعةً في إتمامي لهذه الرّسالة. كما أبعث بجزيل الشكر وأطيبه إلى سعادة الدكتور: علي بن محمد الزهراني، بجامعة أم القرى، الذي كان سراجاً يُضيء لي الطّريق، ليقودني منذ البداية ناصحاً وموجهاً، بما وهبه الله تعالى من غزير العلم وجميل الأدب، والشكرُ مقرون كذلك لسعادة الدكتور علي الشرفي الذي كان مدرسةً في البذلِ والعطاء والتوجيه. فجزاهما الله كل خير.

كما أشكر كلية العلوم الاجتماعية، ممثلةً بقسم التاريخ والحضارة، بجامعة الأمام محمد بن سعود الإسلامية، حين وفَّر لي أجواء مثالية للبحث والاستزادة من خبرات منسوبيها الكرام، وأشكر أيضاً أستاذيَّ الكريمين اللذين شرفاني بالتصدِّي لهذا البحث، وقبول مناقشتي فيه، الأستاذ الدكتور: حمود بن محمد النجيدي، الذي كان له الفضل بعد الله في أن يرى هذا الموضوع النور، فجزاه الرحمن أوفر الجزاء، والدكتورة: عواطف نواب، من جامعة أم القرى، فلها جزيل الشكر والعرفان، وقد استفدت من ملحوظاتهما القيمة، التي ستتمِّمُ الفائدة، وتقوِّم أود الدراسة.

أما الرجل الذي رعى هذا البحث جنيناً، وغذاه مولوداً ويافعاً، ولم يكن يبخل على صاحبته بالتوجيه والإرشاد، باذلاً وقته وجهده وعلمه في سبيل ذلك، فإنني أعلم أنه لا ينتظر مني شكراً ولا ثناء؛ فقد كان تمام

هذا البحـث أبلغ كلمة شـكرٍ يتلقاها، ومع هذا فأراني مشـدودة –يدفعني الاعتراف بالجميل– إلى شكرٍ أستاذي سعادة الدكتور: محمد علي عسيري مشـرفِ هذا البحث على ما قدَّم لي من عون وتوجيه، طيلة عملي، سـائلة الله تعالى أن يجعل ذلك في موازين أعماله.

ولقـد كنت وبحمد الله وتوفيقه محظوظـة بعون من الله ثم بعدد كبير من الذين لا يرجون إلا ابتغاء وجه الله في تقديم يد العون والمساعدة، ولا يتسـع المقام هنا لسردهم جميعاً، ولكن يعلم الله أن صنيعهم باقٍ في قلبي ما نبض، ولهم مني خالص الدعوات وأزكى الأمنيات.

وبعد، فقد كانت هذه الدراسـة جهدَ المقل، واجتهادَ من يُتوقَّع خطؤه قبل صوابه، فأسـأل الله أن ينفع بهـا، وأن يجعلها خادمةً لمدينة المصطفى صلوات ربي وسـلامه عليه، وعلى صحبه وآله، إلى يوم الدين، وهذه هدية يسـيرة أقدمهـا لهذه البقعة الطاهرة وسـكانها، متوِّجةً ذلك كلَّه بشـكر الله على عونه وتوفيقه، والحمد لله رب العالمين.

سارة بنت أحمد بن محمد الزهراني